بناء المعجم وتدريس اللغات
(اللغة العربية نموذجا)

ذ. بلقاسم اليوبي(*)

مقدمة :

لعل قضايا المصطلح والمعجم وما يرتبط بهما من أكثر القضايا المعاصرة إلحاحا، وأكثرها مدعاة لاهتمام العلماء والباحثين العرب. فالمصطلح والمعجم مرتبطان ترابطا جدليا؛ والبحث فيهما غدا ضرورة قومية واجتماعية وتربوية وعلمية. والمصطلح والمعجم هما اللذان يستوعبان اللغة، وبقدر غناهما تكون غنية، وهي تحيى بإحيائهما، وهما يتطوران بتطورها وينتشران بانتشارها وتداولها.

لقد حظيت قضايا المصطلح والمعجم في مجال التكنولوجيا والمعلوميات باهتمامات ودراسات متنوعة، وأصبحت الآن مِحورا هاما في المؤتمرات واللقاءات العلمية والتطبيقات في مختلف مجالات البحث والدرس. وتأتي هذه الندوة "المصطلحات الحديثة ودورها في صناعة المعجم العربي الحديث" لتنضاف إلى حلقة الجهود الجبارة التي تقوم بها كثير من المؤسسات والمعاهد والهيئات ببلادنا، يستحق القائمون عليها والمنظمون لها والساعون في إنجاحها التشجيع والشكر والتنويه.

غني عن البيان أن المعلوميات والتكنولوجيا الحديثة قد غزتا اليوم قطاعي التربية والتعليم، الأمر الذي جعلهما تقلبان مفاهيمهما رأسا على عقب. وقد أثار إدماجهما في مجال التعليم انتباه كل من المربين والمتعلمين والمسؤولين على حد سواء، وبذلك لم يعد التعاطي بالحاسوب ومعالجة البيانات حكرا على أهل الاختصاص، بل أصبح استعمال الأنظمة الحاسوبية المعلوماتية في متناول جل المستعملين بدءاً من المؤسسات التجارية والصناعية والمراكز الكبرى والمعاهد العليا للأبحاث والدراسات، فالخدمات الصحية والمؤسسات التربوية حتى دخول المنازل من غير استئذان.

هذا الأمر بات معلوما لدى القاصي والداني، إلا أنه مع ذلك يمكن أن نبدي بعض الملاحظات الأولية:

(*) باحث مغر (فاس)

1. منذ بداية ظهور تقنيات المعلوميات ووسائل الاتصال المدمجة، نلاحظ أنها قد اتخذت من اللغة الإنجليزية أساسا لها، ومظاهر ذلك عديدة وواضحة تتمثل في عناصر العتاد ولغات البرمجة وملحقاتهما. وقد حاول الأوربيون والآسيويون مواكبة هذا الانفجار المعلوماتي التكنولوجي وعملوا على تطوير العتاد والبرمجيات لتتوافق مع مطالب استخدام لغاتهم؛ في حين بقيت اللغة العربية تعاني من هذا التحدي رغم كثير من الجهود التي يبذلها بعض العلماء في بعض مراكز البحث.

2. على الرغم من كون اللغة العربية لغة ذات ثقافة واسعة وحضارة عريقة تمكنان من الولوج إلى مكتبة غنية جدا تاريخيا وأدبيا وعلميا ودينيا، فإن الاهتمام المخصص لتطوير استراتيجياتها البيداغوجية والتعليمية لا يزال محدودا جدا. فعلا لقد تطورت أساليب تعليم اللغة العربية باعتبارها لغة أجنبية في كل من أمريكا وأوربا وبعض دول آسيا وإفريقيا خلال السنوات الأخيرة –وربما يعود ذلك أساسا إلى عوامل مرتبطة ومتكاملة فيما بينها: سياسية، اقتصادية، دينية– إلا أنها ما زالت لم تستفد كثيرا من الأبحاث والتطبيقات التي تدمج التقنيات التكنولوجية الحديثة في الوقت الذي نجدها تطبق بشكل واسع جدا في بيداغوجية وتعليم اللغات الأخرى.

3. لقد أدى التدريس والتواصل بلغات غير العربية إلى :

أولا– تأخر عام بين المتعلمين: لأن استيعاب لغة الأم واستعمالها في الحياة اليومية يشجع المتعلمين على المشاركة والإبداع، ويمكّن مصطلحاتها من النمو المطرد ويساهم في خلق الألفاظ للتعبير عن المفاهيم والأفكار المستجدة.

ثانيا– تراجع في انتشار وتعميم المصطلحات العربية الفصيحة وحلول المصطلح المستورد محلها: إن صياغة المصطلح العلمي وتعميمه ونشره وتداوله بين المتعلمين والمتواصلين باللغة العربية أمر يغني المعجم العربي الحديث ويساهم بالتالي في ثراء المصطلحات الجديدة ويسهل ولوجها إلى الدرس اللغوي العربي. فنحن نشهد ما تقذف به كل يوم، بل كل ساعة، معاهد البحث والدراسات، سواء داخل الوطن أو خارجه، من مفاهيم جديدة تحتاج إلى:

أ– وضع وصياغة مصطلحات تعبر بدقة وضبط عن هذه المفاهيم المستجدة، وتجميعها ودراستها في معاجم متخصصة، وذلك لأن صياغة المصطلح وضبطه مع ما يمكن أن يرافقه من تفسير وشرح وتداول يعد الوسيلة الأولى لبناء المعاجم المتخصصة التعليمية، وهذا شكل من أشكال تنظيم وتطوير المعارف عن طريق أهم وأجدى الوسائل العصرية المدمجة: التكنولوجيا المعلوماتية والمعاجم المصطلحية.

ب– تذليل العقبات أمام الباحثين في العلوم العربية وذلك بتوفير هذه المعاجم المتخصصة وبنائها بشكل مستمر

وتضمينها ما استَجَدَّ من مصطلحات وشرحها وتنظيمها بحيث تكون ملائمة للمفاهيم والأفكار المراد إبلاغها أو التعبير عنها.

ج- إيجاد استراتيجيات بيداغوجية ديداكتيكية تمكن من إدماج هذه المصطلحات وما تحمله من مفاهيم في المناهج الدراسية بحيث يتم التعامل بها وتداولها واستعمالها بين متعلمي اللغة العربية سواء من لدن أبنائها أومن لدن الأجانب متعلميها أو معلميها.

إن معارف المتعلم سرعان ما تصبح متجاوزة، خاصة في عالم سريع التغيرات، إذا لم يعمل على تجديدها وتطويرها وتداولها باستمرار، وهي حقيقة تعطينا فكرة عن أهمية هذا الإدماج وهذا الانفتاح. وصدق من قال: علموا أولادكم غير ما علمتم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم.

كل هذه المعلومات والملاحظات جعلتنا نفكر في مشروع بناء معاجم مختصة متعددة اللغات، وهو المشروع الذي نحاول أن نقدم أهم معطياته ومبادئه في هذا العرض.

4. بعض ملامح مشروع بناء معجم اصطلاحي لتدريس اللغات:

إن إدراج الوسائل التكنولوجية الحديثة داخل المؤسسات التعليمية من أجل تغيير النظم التربوية والرفع من مستوى المسارات البيداغوجية أصبح الآن واقعا تفرضه الظروف العلمية والتكنولوجية العالمية الحاضرة بالنظر إلى أهميتها الاجتماعية والثقافية، وضرورة تحتمها الرغبة الملحة في انفتاح المؤسسات التعليمية على محيطها الاجتماعي وعلى ميدان الشغل. هذا الواقع العلمي والتقني ذو الأهمية الاقتصادية والاجتماعية، وهذه الضرورة التي تدعو إلى إيجاد سبيل الالتقاء بين المؤسسات التعليمية والمحيط الخارجي يحاولان أن يجدا هدفهما في الاستفادة من الوسائل التقنية الحديثة ومن التجارب المنوطة بها، ولعل هذا هو الهدف الأساسي من كل اختراع تكنولوجي والذي يتجلى في وضع وسائل تقنية فعالة تمكن الإنسان من الانفتاح على محيطه الخارجي وذلك من أجل تواصل عالمي وإنساني.

هذا الإدماج للتكنولوجيا التربوية في المشاريع والتطبيقات البيداغوجية للغة العربية يستوجب دراسات حول: التخطيط والإنجاز والتقييم للمسار التعليمي التعلمي، ويعني ذلك:

- التقييم والضبط للاستعمال المتزايد للوسائل التكنولوجية ومتابعة دراسة سبل إدراجها في النظام التربوي.
- التنظيم العلمي للتطبيقات البيداغوجية عن طريق الاستعمال المعقلن لهذه الوسائل التكنولوجية واعتماد فلسفة بيداغوجية تأخذ بعين الاعتبار العناصر النفسية والاجتماعية واللسانية.

وبتعبير آخر إن إدماج التكنولوجيا في تدريس اللغة العربية يجب أن يركز في فلسفته على:

- ما هو ثقافي لغوي: فيما يتعلق بالمادة المتعلمة (المعروضة– المقترحة).
- ما هو نفسي واجتماعي: فيما يتعلق بتكييف واختيار المواد المتعلمة في توافقها مع الجمهور الهدف.
- مـا هـو بيداغوجي تفاعلي: وهو يتعلق بكل ما يتصل بالنظام الآلي المعتمد لتسهيل الفعل البيداغوجي وإغناء العمل التعلمي.

إن بيداغوجيـة بهـذه المواصـفات تهـدف إلى اعـتماد أهـم المـبادئ المسـتجدة الـتي تتـيحها الدراسات والمقاربات التواصـلية اللسـانية والمعـرفية السـاعية إلى ترسـيخ القـدرات التواصلية لدى المتعلمين آخذة بعين الاعتبار الأبعاد اللغوية والـثقافية والاجـتماعية لهـذه القـدرة التواصـلية الـتي تكـون لـدى المتعـلمين معـرفة علمية وعملية شفهية وكتابية. وهي بيداغوجية أسميناها ببيداغوجية التعبير الحر المشترك PELP .

والتسـمية هـنا ليسـت فقـط استدعاء العنصر اللغوي أو الثقافي، كما لا تحدد في عرض المفاهيم اللفظية والتعبيرية، بـل تشـمل كل العناصر التي تسهم في ترجمة أفكار المتعلم بصورة مرنة للشركاء الآخرين في العملية التعليمية، وهناك من يسميها بالبيداغوجية التوافقية La Péd/Conver .

والترجمـة المتضـمنة هـي تـرجمة سـياقية تناصية بالأساس، وبذلك فهي ترجمة مداخل معجمية تناصية سياقية تفتح أمام المستعمل طريق الدخول في ثقافة اللغة المتعلمة.

وعـلى المسـتوى الدلالـي يقـدم البرنامج شروحات دلالية سياقية للمصطلحات المفتاح أولا باللغة العربية ثم بلغات أخـرى في نوافـذ مـتعددة. وللمتعـلم أن يـبدأ مـن حيـث شـاء، والانـتقال إلى حيث أراد. هذه الشروحات غالبا ما تكون مصـحوبة بصـور وألـوان وبيانـات وهي ما يعرف بأنظمة الحاسوب الفائقة الوسائط والتي هي عبارة عن تطوير وإضافات لأنظمة النصوص والملفات المتشابكة.

وعـلى المستوى الثقافي يضع البرنامج أمام المستخدم معاني ودلالات أخرى للمصطلح ويقدمه له حسب ما يمكن أن يـرد فيـه من استعمال في إطار سياقات لغوية وثقافية قريبة من تلك التي ورد بها في النص المقترح. وهي سياقات قد تهم اسـتعمالات أخـرى لـنفس الكـاتب، داخـل مؤلفـه الـذي أخذ منه النص، أو داخل منظومته الفكرية. والهدف من هذه الشـروحات والمقاربـات هو تنويع وتنمية المعرفة الثقافية وتطوير الحصيلة اللغوية وتعزيز أساليب التمرين والتدريب لدى المتعـلمين. فعـن طـريق دمجهـم في حمـام ثقافـة الـلغة المتعـلمة تـرى المتعـلم يلاحـظ ويسجل ويخزن المعلومات اللغوية والـتاريخية والديـنية والاجـتماعية وغيرهـا، فإذا رجع من سفره داخل النص رجع مزودا بقدرة لغوية وثقافية تمكنه من التواصل والتعبير والتجاوب مع أبناء تلك اللغة وتلك الثقافة.

وعلى المستوى التركيبي تتم معالجة المصطلحات من حيث بنياتها التركيبية واستعمالها النحوي. والمعالجة من هذا النوع ينبغي أن تكون خدمة للنص، وبذلك يكون موضوعها لغة كاتب معين، ومتن معين، وتحديد المعاني والدلالات والسياقات التركيبية بحسب المنظومة الفكرية للكاتب والمؤلف. وهنا يتم التعرض للعلائق التي تربط المصطلح بباقي المصطلحات داخل النص وداخل المنظومة الفكرية لصاحب النص، كما تتم الإشارة إلى القواعد النحوية التي تتحكم في تركيب ذلك المصطلح داخل الجملة أو داخل الوثيقة بصفة عامة.

وفي المستوى الأخير، مستوى التواصل والتفاعل والتقويم، تتم عملية اختبار المتعلم بالمعلومات المعروضة عليه وتقويم المعرفة التي حصل عليها من خلال سفره داخل النص ومعرفة مدى قدرته على الاستيعاب والفهم والتخزين، وبالتالي التعبير وإعادة الإنتاج. يتضمن البرنامج جملة من التمارين الغاية منها وضع المتعلم مسؤولا عن نفسه مع كثير من تقنيات التشجيع والمساعدة والإعادة والذهاب والرجوع إلى النص الأصل من أجل التحقق واسترجاع المعلومات.

هذا والحقيقة أن هذه الأعمال ما زالت في بداياتها، ونحن إذ نقترحها نأمل أن تكون مساهمة فعالة في تطوير البحث العلمي في مجال بناء وصناعة معاجم عربية اصطلاحية حديثة تستعمل وتشتغل في التدريس والتعليم. إن تطبيقات PELP ترتكز على التفاعلية التي تفضل وتؤكد على المشاركة التامة والتدخل الذكي للمتعلم من خلال استعماله واستخدامه الشخصي للتقنيات التكنولوجية المتاحة لديه بمشاركة ومساعدة أصدقائه في مجموعة القسم. وتجدر الإشارة إلى أن القدرة التواصلية التعبيرية تتكون لدى المتعلمين في نفس الوقت الذي يكتسبون فيه القدرات اللغوية والثقافية، إذ بدون الأولى لا يمكن الحديث عن الثانية، وهذه الأخيرة هي التي ينبغي التفكير فيها مليا عند بناء معاجم اصطلاحية لغوية وثقافية يكون الهدف منها المساعدة في تدريس اللغة والثقافة العربيتين.

لبناء هذا النوع من المعاجم وفق هذه الأسس المنهجية والمبادئ البيداغوجية اشتغلنا على مرحلتين: مرحلة التطبيق ومرحلة التنظير، لأن التطبيق في نظرنا يجب أن يكون قاعدة للتنظير كما يجب أن يكون سابقا له. وللجمع بين المرحلتين قمنا بإنجاز برنامج لغوي تواصلي تفاعلي يتضمن حاليا ستة مكونات وإن كانت ما زالت في مستواها التهييئي بانتظار أن تتم عملية البرمجة والتوزيع والتقييم والاستدراك، وهذه المكونات هي:

1. المكون الصوتي
2. المكون المعجمي
3. المكون الدلالي
4. المقاربة الثقافية لكل مصطلح مع ما يرافق ذلك من تفسير تناصي بلاغي أسلوبي لهذه المصطلحات.

5. التحليل السياقي للمصطلح الوارد في النص المختار.

6. الدراسة التواصلية التفاعلية التقويمية.

فعن طريق الدراسة الصوتية للفونيمات، والشرح المعجمي للمصطلحات، والتناول الدلالي السياقي، والمقاربة للحمولات الثقافية التي يزخر بها المصطلح مع ما يرافق ذلك من تحليل تركيبي وتفسير تناصي بلاغي أسلوبي يمكن للمتعلم الإبحار في بحر من المعلومات اللغوية والثقافية والأفكار التي يقدمها النص المختار بشكل منظم وبصورة أنيقة وجذابة.

فعلى المستوى الصوتي يمكن لمستعمل البرنام التعرف على أصوات اللغة العربية وأن يستمتع بها صوتا (سمعا) وشكلا (خطا وكتابة). كل فونيم من فونيمات النص يمكن تحريكه أو ضغطه بواسطة الفأرة، لتنفتح أمام المستخدم مجموعة من النوافذ متعددة الألوان واللغات، مختلفة الأشكال والمعلومات. وفي حالة رغبة المتعلم التعرف على نطق الفونيم أو الكلمة فإن له أن يضغط بالفأرة على موضع الفونيم أو الكلمة من خلال الجهاز النطقي المخزن داخل الحاسوب ليستمع إلى كيفية نطقه صحيحا فصيحا.

وعلى المستوى المعجمي يمكن لمستخدم البرنام التعرف على ترجمة الكلمات العربية ومقابلاتها في لغات أخرى بمجرد اختيار الكلمة المراد التعرف عليها ثم اختيار اللغة التي يتقنها ويجيدها ليجد ترجمة للمصطلح بأحدث الوسائل التكنولوجية، وهي أعمال تنتظر النضج لتوزع على شبكة الانترنيت من أجل استعمال أوسع وفائدة أعم.

وفي الختام نرجو أن يفتح هذا المشروع بـــاب

النقاش البناء، وأن يكون هدف الحوار والاقتراحات والملاحظات بخصوصه، والتي نرحب بها، تنمية الأفكار وتشذيبها، قاصدا من وراء كل هذا:

1. جعل المعجم العربي يحظى بنصيبه في الاستفادة من المعطيات التكنولوجية الحديثة وإمكانات استثمار مصطلحاته في المجالات البيداغوجية والتعليمية والثقافية.

2. دراسة المصطلحات العربية بمنهج يراعي خصائصها ولا يغفل تطورها، بغية فهم نظام اللغة العربية ونشر علومها، مع محاولة تقريبها من الآخرين بأساليب وطرق جديدة دون المساس بجوهرها.